﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرّوم: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط بيان عاقبة من اتّبع الهوى، بالأمر بالدّين القيّم، والفطرة الأصيلة

بعد أن عدّد الله سبحانه البيّنات والأدلّة، على وحدانيّته وعظمته، وأثبت الحشر، وضرب لذلك المثل، وما دام الكفّار، قد اتّبعوا أهواءهم وضلّوا، وأصرّوا على ضلالهم، خاطب النّبيَّ ﷺ، فدَعْك أيّها النّبيّ منهم، ولا تتأثّر بإعراضهم[1]، واثبت على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله تعالى وحده، وأقبل على هذا الدّين الّذي أوحاه الله إليك[2]، فهو فطرة الله الّتي رسخت معرفتها في العقول[3]، وهي الحنيفيّة الإبراهيميّة، الّتي هداك الله إليها، وفطرك عليها، كما فطر الخلق جميعًا، وبهذه الفطرة السّليمة، والعقيدة القويمة، يهتدي البشر إلى معرفة ربّهم وخالقهم تعالى وتقدّس، وأنّه واحد لا شريك له[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَقِمْ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انْتِصابٍ وعَزْم، يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ[5]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أيْ: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيهِ، وأقامَ الشَّيءَ بِمعنى أدامَهُ[6]، وأقامَ الشَّيْءَ: إذا قَوَّمَهُ وسَوّاهُ[7]، واستقام

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11413.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 83.
(3) المراغي، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3321.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).

له، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُۗ﴾ [فصّلت: 6]، أي: في التّوجه إليه دون الآلهة، وقوّمت الشّئ فهو قويم، أي: مستقيم، والقوام: العدل، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: 67][1]، والمُرادُ بإقامةِ الوجْهِ: تقويمُه وتعديلُه باتِّجاهه، والدّوام على ذلك[2].

2) ﴿حَنِيفًاۚ﴾: (حنف) أصلٌ يدلُّ على المَيلِ، والحنف: انقلاب القدم حتّى يصير ظهرها بطنَها، وحنف الرّجل يحنف حنفًا، فهو أحنف، والمرأة حنفاء، والحنف في القدمين، أن تميل كلّ واحدة منهما، بإبهامها على صاحبتها، وقد سمّت العرب حنيفًا، يُقالُ: تَحَنَّفَ فُلانٌ إلى الشَّيْءِ، تَحَنُّفًا: إذا مالَ إليه[3]، ومنه سُمّي الموحِّدُ حَنيفًا؛ لأنَّه مائِلٌ إلى الدّين المُستَقيم، وثابِتٌ عليه[4]، ومَن أقبلَ على شيءٍ مالَ عن غيرِهِ[5]، ويُقالُ هو يتحنَّفُ، أي: يتحرَّى أقوَمَ الطَّريقِ[6]، والمقصود بالحَنيف في الآيةِ: المَيْلُ عن غير الإسلام، من كلّ باطل شركًا وانحرافًا مُقبلًا على عبادةِ اللّهِ.

3) ﴿فِطْرَتَ﴾: (فطر) أصلٌ يَدُلُّ على فتْحِ شَيءٍ وإبرازِهِ[7]، يقال: فطَرَ البئرَ، يَفطُرها، فطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم[8]، والفطرة: الغَريزَة، والطَّبيعة، قال ابن عبّاس: كنت ما أدري ما فاطر السّموات والأرض، حتّى احتكم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: أنا ابتدأت حفرها[9]، والمقصود بها في الآية: الخِلقة أو الحالة الَّتي خلَق اللّه عليها الخَلْق.

4) ﴿تَبْدِيلَ﴾: أصلُ (بدل) واحِدٌ، هو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُهُ، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ: إذا غَيَّرتُهُ، وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]، وأبْدَلْتُهُ: إذا أتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (قوم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88، 89.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(4) الزّجاج، معاني القرآن: 4/ 184.
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (فطر).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فطر).

والإبدال: تنحيّةُ الشّيء، واستئناف شيء آخر مكانه[1]، والمقصود بالتَّبديل في الآية: أنّه لا تعديل لما خلق اللّه عليه الخلق، ولا تحويل ولا تغيير.

5) ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انتصابٍ أو عزم، قوَّمتُ الشَّيءَ تقويمًا[2]، والقَيِّمُ: وصفٌ بوزنِ فيْعِلٍ يُفيدُ قوَّةَ الاتِّصافِ بمصدره، أي: البالغُ قوَّةَ القيام مِثْلَ استقامَ الَّذي هو مُبالغةٌ في قامَ كاستجابَ[3]، والقَيِّمُ هوَ الْمُسْتَقيم[4]، وهو الَّذي يَتَولَّى القيامَ بالأمرِ رعايةً لهُ وحِفظًا، وقَيِّمُ القَوْمِ: الَّذي يَقومُ بشأنهم ويسوسُ أمرهُم، وقَيِّمُ اليَتيم: هو الَّذي يقومُ بأمرِه، ويتعهَّدُ شُؤونه بالرِّعاية والحِفظِ[5]، وقول اللّه ﷻ: ﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [التّوبة: 36]، أي ذلك الحساب الصّحيح، والعدد المستوي[6]، والمُرادُ بالدّين القيِّم في الآية: الدّين المُسْتَقيمُ الَّذي لا زيغ فيه، ولا مَيْل عن الحَقِّ، والقائم بمن يلتزمه بالنّفع والخير والحفظ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمر الرّسول الأكرم ﷺ، بإقامة دين الفطرة القيّم

يأمُرُ اللّه تعالى نبيَّه – والمؤمنين معه – أن يَثْبُتَ على الحقِّ الَّذي هداه إليه، فيقولُ: فانصِبْ يا محمَّدُ ﷺ قَلْبَك وقَصْدَك كُلَّه، إلى الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللّهُ لك، ودُم عليه، واجتَهِدْ في طَلَبِه واتِّباعِه، مُقبِلًا على عبادةِ اللّهِ وحْدَه، مائلًا عن كلّ باطل ممّا عداه، والزم الإسلام؛ فطرة اللّه؛ إذ خلق اللّه جميعَ النّاسِ مُهَيَّئينَ لِمَعرفتِه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (بدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 248.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (دين).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 93.

وقَبولِه، والانقيادِ إليه، وجعَل تعاليمَه مُناسِبةً لخِلقتِهم، تلك فطرة اللّه للجميع، لا مبدّل لها، والإسلامُ هو الدّينُ الكامِلُ الّذي يقوم بشؤون النّاس، ويصلح أحوالهم، ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ جاهلون، فهم يُشرِكونَ باللّهِ، ويتَّبِعونَ غيرَ ما شَرَعه اللّهُ تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله ﴿فَأَقِمْ﴾:

الأمـر بإقامة الدّين، والإقبال على الحقّ المبين

ابتدأت جملة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ بالفاء، وهي فاء الفصيحة؛ تُفصح عن محذوف تقديره: (إذا علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحقّ فأقم وجهك للدّين)[2]، وترتِّب ما بعدها عليه، في الأمر بإقامة الوجه للدّين[3]، ويجوز أنْ تكون (الفاء) رابطةً لجواب شرط مقدّر، وجملة: (أَقِمْ وجْهَكَ ...)، في محلّ جزم جواب الشّرط، تقديره: (إن ضلّ بعض النّاس، فأقم وجهك للدّين)[4]، والمعنى: انصب وجهك إلى الدّين، بأن تتوجّه بقلبك وقصدك وبدنك، إلى إقامة شرائعه الظّاهرة والباطنة[5]، وهي رابط تشدّ بين كلمات التّركيب الالتئام، فتكون للكلام كالسّلك للعقد النّظيم، أو القالب الّذي يفرغ فيه الذّهب الكريم[6].

دلالةُ التّعبير بفعل الإقامة:

بيـانُ ضـرورة الإقـبـال على الحقّ، ولزومه والثّبات عليه

عبّرت الآية عن الإقامة بلفظ ﴿فَأَقِمْ﴾؛ مِن قوّم العود وأقامه، فقام واستقام وتقوّم[7]، فدلّ على إقامة الوجه، وهو فعل متعدّ؛ أي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 492، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 313، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 83، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 641.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 243.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 41.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 640.
(6) ابن عاشور، تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنّة، ص: 35.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 242.

تعديل إقبال الوجه وتسديده[1]؛ فلا يميل عنه ولا يلتفت إلى غيره، ودلّ أيضًا على الإقامة على الدّين، وهو فعل لازم؛ أي الجدّ في الدّين والثّبات عليه[2]، ويدلّ أيضًا على الإقامة عنده دون مفارقة، بمعنى لزوم الدّين، وفي كلٍّ فإنّ المراد من السّياق الإقبالُ على دين الإسلام، والثّبات عليه، مراعاة للقابليّة للحقّ، والتّهيّؤ لإدراكه بالفطرة[3].

غرضُ الأمر في الفعل ﴿فَأَقِمْ﴾:

الأمـر بالـدّوام عـلى الـحـقّ، وعـدم الالتفات للمعرضين

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، جاء الأمر بإقامة الوجه للدّين، وليس الأمر على ظاهره؛ لأنّ المأمور هو الرّسول ﷺ، وهو مقيم للدّين ثابت عليه، وإنّما الغرض من الأمر هو الحثّ على المداومة على إقامة الوجه للدّين، والمبادرة إلى الالتزام بالإقبال على الحقّ[4]؛ والإعراض عن الكفّار[5]، وتمحيض الوجهة لدين الله وحده، من غير التفات إلى غيره من الأديان الباطلة، فإنّ من اهتمّ بالشّيء صوّب إليه بصره، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه، مقبلًا عليه[6]، بحيث يكون الإقبال بالكليّة.

بلاغةُ الاستعارة التّمثيليّة في ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾:

أثـرُ الاهـتـمـام بـالـدّيـن، والالـتـزام بنهج ربّ العالمين

تضمّن قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ استعارة تمثيليّة، بتشبيه المأمور بالتّمسّك بالدّين، ورعاية حقوقه، وعدم مجاوزة حدوده، والاهتمام بأموره، بمن أُمر بالنّظر إلى أمر، وعقد طرفه به، وتسديد نظره وتوجيه وجهه له، لمراعاته والاهتمام بحفظه حَنيفًا، أي: مائلًا عن كلّ ما سواه إليه[7]، وقد جاءت الصّورة تمثيلًا لحالة الإقبال على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 83.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 98.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 88.
(6) القنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 245.
(7) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 13.

الدّين والثّبات عليه والاهتمام به وبأسبابه[1]؛ بالإقبال على شيء والتّمحّض للاشتغال به فقط، دون التفات عنه يمنة ولا يسرة[2].

دلالةُ ضمير الخطاب في لفظ ﴿وَجۡهَكَ﴾:

دعـوةٌ للثّبات عـلى الـحـقّ الـسّـديـد، والإخـلاص للدّين الجديد

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، جاء فيه الخطاب بصيغة الأمر للمفرد، وإضافة الكاف في ﴿وَجۡهَكَ﴾، ليكون المقصود بالخطاب هو النّبيّ محمّد ﷺ ابتداء، ويكون المؤمنون معه تبعًا له في الخطاب، كما يفهم من قوله بعده: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾[3]، وفي ذلك إيناس بقرب المخاطَب، ودفع للأسى عنه ﷺ، وتحفيزه على مزيد من الثّبات على الحقّ، في مواجهة إعراض الكفّار، وطعنهم في الحقّ، ويقول له، ما مؤدّاه: إذا كان هؤلاء يعرضون، فأقبل أنت على دين الله حنيفًا، وإذا كانوا ينحرفون، فاثبتْ فأنت على الفطرة النّقيّة، والمحجّة السّويّة.

بلاغةُ الالتفات من المخاطب إلى الغائب:

أثـرُ السّـياق في إيـنـاس المقبل، وتقريع المعرض

جاء أسلوب الالتفات في السّياقات السّابقة، بالعدول من المخاطب في قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾، إلى الغائب في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، والنّكتة في ذلك هي بُعد المعرضين ونفورهم عن الحقّ، بعد إذ تبيّن، فأُبعدوا في الخطاب بعد أن قُرّبوا بالحديث المباشر؛ لأنّهم لم يكونوا أهلًا للقرب، ثمّ عدل بعد الحديث عن الغائب، إلى خطاب المفرد في هذه الآية، فقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، ونكتة العدول بالالتفات، هي العودة تارة أخرى، إلى الإيناس والتّسلية، لخير البشريّة، عمّا يعانيه من الكفر والجحود، من كلّ معاند كنود، وهو بذلك يقول

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

له: أقم وجهك للدّين، فأنت على الحقّ المبين، وأنت مكرّم لدينا، ولست بالمهين.

معنى (اللّام) في القيد ﴿لِلدِّينِ﴾:

جُرّ لفظ الدّين في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، باللّام، التي عملتْ هنا على تعديّة فعل الإقامة إلى الدّين؛ كما ضُمّنت اللّام معنى الحرف (إلى) باعتبار توجيه الوجه إلى الدّين، بمعنى (أقبل عليه)، ويمكن أن تُضمّن اللّام معنى (عند)؛ أي (أقم وجهك عند الدّين) أي (الزم الدّين، واستغن عمّا سواه)، كما يمكن أن تُضمّن معنى (على) بمعنى الإقامة على الدّين؛ أي: الدّوام والاستمرار على الحقّ، فصار معنى الجملة بضمّ دلالة اللّام إلى معنى الإقامة، هو: الإقبال على الدّين ولزومه والدّوام عليه، قال البيضاويّ: له غير ملتفت عنه، هو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به[1]، وبذلك يمكن أن تستوعب المعاني برمّتها.

استيعابُ حرف المعنى لأكثر من دلالة، مفيد في البيان المتوخّى

دلالةُ لفظ ﴿لِلدِّينِ﴾ ومعنى (أل) فيه:

معنى الدّين في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: "أخلص قصدك إلى الله، واحفظ عهدك مع الله، وأفرد عملك في سكناتك وحركاتك وجميع تصرفاتك لله"[2]، وقد جاء لفظ ﴿لِلدِّينِ﴾ معرّفا بالأداة (أل) العهديّة، فالمقصود بالدّين هو دين الإسلام[3]، والمطلوب إقامة الوجه لهذا الدّين، وفيه دعوة صريحة بليغة، لاعتناق الحقّ، والتزام الفطرة، والإشارة إلى أنّ المشركين - وإن كانوا يزعمون أنّهم على دين - ليسوا على شيء من ذلك، لإعراضهم عن الحقّ، بعد تفصيل آياته، وظهور معالمه وبيّناته.

الدّين عند الله الإسلام، وهو الالتزام بالحقّ والفطرة

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 4/ 206.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿حَنِيفًا﴾ دلالة وصيغة:

التّبرّؤُ ممّا سوى الحقّ، هو مسلك الله المحقّ

آثرتِ الآيةُ التّعبير بلفظ ﴿حَنِيفًا﴾ في الآية؛ لِسبب يتعلّق بمادّتها؛ إذ إنّ الحنف هو الميل، سواء أكان ميلًا ذاتيًّا، أو ميلًا عن أشياء، وهنا الحنف هو الميل من الضّلالة إلى الاستقامة[1]، أي الميل عن غير الحقّ، من أديان محرّفة، أو عقائد باطلة[2]، وفي ذلك تعريض بأهل الضّلال، في اتّباعهم الهوى بغير علم؛ لأنّ المؤمن بالمقابل، يميل مع الدّليل، ويجنح إلى الحقّ، لا تمنعه الأهواء عن الأوبة، ولا تصرفه الشّهوات عن التّوبة، إذا أبصر الهدى، ولاح له النّور، "حال كونك ميّالًا مع الدّليل، هيّنًا ليّنًا، نافذ الصّبر، نيّر البصيرة، ساري الفكر، سريع الانتقال، طائر الخاطر[3]، وهناك سبب يتعلّق بصيغتها ﴿حَنِيفًا﴾، حيث وردت بصيغة المبالغة (فَعيلٌ)، وفيها تلميح لسرعة الميل عن الباطل، وشدّة الميل إلى الحقّ[4]، وفيها دلالة على كمال الاتّصاف بالحنف، أي: كون الحنيف مائلًا إلى دين الإسلام في كلّ حال وأوان[5]، وباجتماع دلالة مادّته وصيغته، فقد صحّت دلالته، على التّبرُّؤ ممّا سوى الحقّ، ووحدانيّته، وعظمته.

علّةُ فصل جملة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلها:

تأكيدُ صلاحيّة الإسلام بموافقته للفطرة

فُصلت جملة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّها كالتّأكيد لما قبلها[6]؛ فلمّا ذُكر التّبرّؤ من الشّرك والباطل قبلها، ناسب أن يذكر هنا موافقة الإسلام للفطرة، فيفيد أنّه دين سمح سهل لا عنت فيه[7]، وفي ذلك بيان للكفّار بصحّة دين الإسلام "بأمر هو

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 45.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 336.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 15/ 83.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89 (بتصرّف).
(5) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 543.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 15/ 136.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 89.

في أنفسهم، كما بيّن بطلان دينهم، بأمر هو في أنفسهم"[1]، وهو ما يوافقه قولُ السّعديّ في معرض كلامه عن الفطرة؛ إذ يقول: "إنّ جميع أحكام الشّرع الظّاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلّهم، الميلَ إليها، فوضع في قلوبهم محبّة الحقّ، وإيثار الحقّ، وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها"[2].

نكتةُ حذف العامل في قوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾:

التزامُ الإسلام ونَبْذُ ما يخالف الفطرة، هو مسلك الحقّ والنّجاة

جاء لفظ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾ منصوبًا في بداية الجملة، وهو ما يشعر بوجود عامل، وفي تقدير العامل اختلاف بين المفسّرين؛ فجعل بعض المفسّرين نصبه على الإغراء، ويكون تقديره: (الزموا فطرة الله[3]، وعليكم فطرت الله)[4]، وفي ذلك إغراء وتشويق للالتزام بالإسلام، لأنّه موافق للفطرة[5]، فمن أراد الفطرة فعليه بالإسلام، وفيه أيضًا تعريض بالشّرك، لأنّه مخالف للفطرة.

دلالةُ الإضافة في ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾:

مخالفةُ الإسلام هي مخالفة فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها

أضيف لفظ ﴿فِطۡرَتَ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾، وتدلّ الإضافة هنا على نسبة الفطر إلى مولاه، فالله هو خالق الإنسان، وهو أعلم بخلقه، ولا يصلح للإنسان أحسن ممّا فطره الله عليه، وهي فطرة الله الملك الآمر، فلا مردّ لأمره[6]، وفطرة الله صنعة الله الّتي خلق النّاس عليها، ونصبت ﴿فِطۡرَتَ﴾ على المصدر، من معنى قوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾، وذلك أنّ معنى ذلك: فطر الله النّاس على ذلك فطرةً، وبنحو ذلك قال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 84.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 640.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الغيب: 12/ 243.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 479، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 40.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11418.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 85.

أهل التّأويل[1]، وهي إشارة إلى أنّ من يخالف الإسلام، فإنّه يخالف فطرة الله، ويخالف الخالق الآمر.

علّةُ التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

جاء التّعبير عن فطرة الله، في قوله: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾، وهو وصف لفطرة الله، مبيّنا للإضافة، أي: إضافة الفطرة إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، أي فطرة هي؟ إنّها ما فُطر النّاس عليه[2]، أي في أصل خلقهم، وما ينسجم مع فطرتهم؛ حين سلامة عقولهم وحواسّهم، ويدلّ أيضًا على تأكيد وجوب الامتثال بهذه الفطرة؛ لأنّها فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها[3]، وأنّ هذا هو الأصل في النّاس، لا ما طرأ عليهم من الغواية والانحراف.

بيانُ مزيّة الفطرة، وتأكيد لزومها

دلالةُ المضيّ في الفعل ﴿فَطَرَ﴾:

صيغ الفعل ﴿فَطَرَ﴾ بصيغة المضيّ، ويدلّ هذا على أنّ الإسلام، هو الأصل في خلق النّاس، ومبدأ وجودهم، فالأمر بلزومه هو رجوع إلى الأصل، كما يدلّ الفعل الماضي على سبق الإسلام، فطرة في النّاس، وأنّ ما يظهر في النّاس من غواية وانحراف، إنّما هو طروء وأمر حادث على الأصل، في إشارة إلى مطالبة الكفّار بالدّليل، على سلامة حالهم وموافقته لأصلهم، كما يقال: (الأصل لا يُطالبُ بالدّليل).

الإسلامُ أصل سابق، والكفر انحراف حادث

معنى (على) في القيد ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾:

جيءَ بحرف (على) في القيد ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾، ليدلَّ على الاستعلاء، فهو فطر للنّاس على تلك القابليّة، وهي إشارة إلى "تمكّن ملابسة الصّفة بالموصوف تمكّنا يشبه تمكّن المُعتلي على شيء"[4]، ففطر

طبْعُ النّاسِ على قبول الإسلام، فطرةٌ وجبلّةٌ

(1) الطّبريّ، جامع البيان في تأويل القرآن: 20/ 97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 90.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 15/ 85، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 40، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 60.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 90.

النّاس على هذه الفطرة، أصيل متمكّن، كأنّ النّاس قد طُبعوا عليه، وترسّخ فيهم، وفي ذلك مزيدُ إغراء وترغيب، في التزام الإسلام؛ لأنّه أقرب إلى خلق النّاس وطباعهم، وأكثر انسجامًا مع فطرتهم.

قُيّد ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ﴾ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾، لتأكيد أنّ ما فُطر النّاس عليه هو القابلية للحقّ والإسلام، وأنّه أمر مفروض وطبع لازم فيهم؛ وليس بالأمر الذي ينفكّون عنه، وفي ذلك الدّعوةُ إلى الإقبال على الفطرة والرّجوع من الانجراف إلى الجادّة.

الـفـطـرةُ أمـر مطبوع، لا ينفكّ عنه أحد

علّةُ فصل جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ عمّا قبلَها:

إذا كانت الفطرة أمرًا مطبوعًا عليه النّاس ابتداءً، فهل هو أمر موجود دائمًا؟ تأتي جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ لتبيّن ذلك[1]؛ فهذه الجملة بيان وتتمّة لمعنى فطرة الله، أي إنّ سلامة الفطرة مستمرّ فلا تبديل لخلق الله[2]، وهي أيضًا تعليل للأمر بلزوم فطرة الله، ولوجوب الامتثال بالإسلام، بأنّه لا تبديل له لأنّه خلق الله[3]، والفطرةِ هي: الحالةُ الّتي جُبِلوا عليها مِن قَبولهم للتّوحيد، واقتناعهم بدينِ الإسلام، وتمكُّنهم مِن فهمه بعمق، وإدراكه بإحاطة، بحيث لو خُلّوا وما جُبِلوا عليه، لَما اختاروا عليه سواه، وشهدت عقولُهم الفطريَّة به، ومَن غوى منهم فبإغواء شياطينِ الإنس والجنِّ، الّذين يجتالون عباد الله عن دينهم[4].

استمرارُ سلامة الـفـطـرة، دليل على أن لا تبديل لخلق الله

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾:

ابتدأت جملة ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ بـ﴿لَا﴾ النّافية للجنس؛ وهي لنفي أيّ تبديل لخلق الله ﷻ[5]، وفي ذلك تيئيس أيّ تيئيس؛ فالفطرة

تـيـئـيـسٌ مـن التّبديل ودعـوة للتّكشيف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 87.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 60.
(4) كتاب تفسير ابن كمال باشا: 8/ 137.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 93.

كامنة في نفس كلّ إنسان، ولن يبدّلها شيء، وفي ذلك دعوة إلى استكشاف هذا المعنى الأصيل، تحت ركام من المؤثرات تبغي التفلّت من الفطرة ولا تقدر على ذلك، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، يعني: لقضاء الله وقدره، وهذا المعنى صحيح أيضًا، وإن كان الأوّل أقرب، فإذا قدر الله شيئًا فلن يقدر أحد أن يغيّر قدر الله المقدور، وهو سبحانه خلق الجنّة للمثوبة، وخلق لها أهلها، وخلق النّار للعقوبة، وخلق لها أهلها؛ لأنّ الله أعلم بما كانوا عاملين، فهؤلاء للجنّة وهؤلاء للنّار، وعدله يستوعب هؤلاء وأولئك[1].

سرُّ اختيار لفظ ﴿تَبۡدِيلَ﴾ دون غيره:

بيانُ أن لا تغيير لخلق الله الكريم، ولا تبديل لقدرة الحكيم

آثرت الآية لفظ ﴿تَبۡدِيلَ﴾ في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، دون لفظي (التّغيير) و(التّعديل)، لما في التّبديل من تجاوز الموجود، ومحاولة إحلال شيء محلّه[2]، وهو معنى أعمّ من التّغيير، حيث يكون المبدَل مخالفًا للأوّل، وأطلق التّغيير في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ [الرعد: 11]، على التّسبّب فيه على طريقة المجاز العقليّ[3]، وفي ذلك إشارة إلى أنّ مجرّد تجاوز ما هو موجود، وهو الإسلام والقابليّة للحقّ وتبديلها بدين آخر، هو أمر غير مقبول، ناهيك عن تعديله، أو اتّخاذ دين يخالفه، ممّا تأباه الفطرة، ولا يتلاءم مع الطّبع الإنسانيّ، كما أرادته حكمة الله العليّة.

معنى (اللّام) في ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾:

انتفاءٌ تامٌّ لأيّ تعلّق بين التّبديل وخلق الله

جُرّ لفظ (خَلْق) في قوله: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ باللّام، وهي لام الاختصاص، أي: تخصيص الخلق بالتّبديل وتعلّقه به، فصار عمل ﴿لَا﴾ النّافية للجنس، هو نفي أيّ تعلّق بين التّبديل، وخلق الله، فقد

(1) أحمد حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 3/ 212.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (بدل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 102.

يقع تبديل في الكون لأمر من الأمور، بفعل الظّواهر الطّبيعيّة، الّتي تجري بإرادة الله وقهره، ولكنّ قوانين الخلق لا تتبدّل، كما أنّ خلق الله قد يوصف بصفات أخرى كالمناسبة مع الفطرة، وكمال الحكمة، ولطف الرّحمة، ولكنّه لا يوصف بالتّبديل، وفي ذلك إشارة إلى نفي ذلك عن خلق الله، بأيّ صفة وبأيّ حال، ما لم يكن أمرًا وقدرًا من الله جلّ في علاه، في إطار الإهلاك والعذاب، فتلك خوارقُ تخرج عن القوانين الثّابتة، وتكون محدّدة بزمانها ومكانها وأسبابها.

دلالةُ التّعبير بلفظ الخلْق:

بيانُ أنْ لا تبديل ولا تغيير، لما أنشأ العليُّ القدير

عبّرت الآية في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، بلفظ (خَلْق)، والخلق مصدرٌ يدلّ على الإنشاء والابتداء، أي إنّ قابلية النّاس للحقّ، وكون الإسلام موافقًا للفطرة، أمر أُنشئ عليه الإنسان، وابتدئ به منذ الخلق الأوّل للأنام، وما كان على الأصل فلا يتبدّل[1]، ويدلّ الخلق كذلك على تقدير وتحديد، لا ينفكّ عن إرادة الله المجيد، وهي إرادة منوطة بالإختيار، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: 68]، وفي ذلك إشارة إلى أن: لا تبديل لما اختاره الله وارتضاه في خلق الإنسان[2]، فجملة: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ تحتمل تأويلين: أحدهما أن يريد بها هذه الفطرة المذكورة، أي اعلم أنّ هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخلق، وثانيهما: أنّ هؤلاء الكفّار قد خلق الله لهم الكفر، ولا تبديل لخلق الله، أي إنّهم لا يفلحون أبدًا[3].

دلالةُ إضافة (خَلْق) إلى اسم الجلالة:

خلقُ الله معجز أثير، فلا تبديل له ولا تغيير

أضيف لفظ ﴿لِخَلۡقِ﴾ إلى اسم الجلالة، في قوله: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، والإضافة هنا تدلّ على ربط عدم التّبديل للخلق، بكونه خلقَ الله،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 84.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 18/ 11419، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 84.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 336.

ولتمام قدرته، واتّساع ملكه، ونفوذ إرادته، لا يقدر أحد على تبديل شيء ارتضاه، ولا تغيير أمر حكم به في علاه، ولذلك نفى السّياق التّبديل عن غيره، حين نسب الخلق إلى جلاله الأعزّ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ فطرة الله لا تتبدّل، وأنّ خلقه لا يتحوّل، باعتبار ذلك سننًا كونيّة، وقوانينَ علويّة، وقد قال في محكم تنزيله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ٤٣﴾ [فاطر: 43].

بلاغةُ الخبر بإفادة النّهي عن تبديل الخلق:

بيانُ تقرير الخبر المـراد، بتضمّن الغرض المستفاد

جاء التّعبير بالأسلوب الخبريّ، في قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾، وتقدير معناه بإفادة النّهي: (لا تُبدِّلوا خلق الله)، وتكمن بلاغة الأسلوب الخبريّ هنا، في تضمّن تقرير مضمون الجملة، فالإسلام فطرة الله، ولا تبديل لخلق الله، وتضمّن الخبر يفيد التّنفير من ذلك؛ فلا ينبغي أن تُبدَّل فطرة الله أو تُغيّر، فيكون السّياق خبرًا في معنى النّهي؛ كأنّه قيل: لا تُبدّلوا دين الله بالشّرك[1]، وهذا ما لا يتضمّنه أسلوب النّهي المباشر؛ إذ في أسلوب الخبر المسوق، بيانٌ أجودُ، ودلالةٌ أنصع وأوكد.

نكتةُ فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ عمّا قبلها:

ترتّبُ العظمة على تمام الكمال، مفيد في البيان عن غرض المقال

فُصلت جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ عمّا قبلها، لِما فيها من التّتميم؛ إذ إنّه لمّا تقرّر أنّ الإسلام دين الفطرة التّي فُطر النّاس عليها، وأنّه لا تبديل لخلق الله، ترتّب عليه تعظيم هذا الدّين، وأنّه حقيقٌ بإقامة الوجه له[2]، والمراد بالدّين القيّم هنا، الشّريعةُ المستقيمة، وقد يكون أيضًا بمعنى: هذا الجزاء من الله ﷻ الّذي يجازي به خلقه يوم القيامة، فهو الجزاء العادل من الله سبحانه وتعالى، أو هو ذلك الحساب البيّن من الله سبحانه"[3].

(1) الأحنف اليمنيّ، البستان في إعراب مشكلات القرآن: 2/ 41.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 88.
(3) أحمد حطيبة، تفسير أحمد حطيبة: 4/ 212.

علّةُ التعبير باسم الإشارة الدّالّ على البُعد:

الـدّيـن القـيّـم الكريم يستحقّ المزيد من التّمييز والتّعظيم

ابتدأت جملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾، باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، ومرجع الإشارة هنا إلى الإسلام، أي الدّين المأمور بإقامة الوجه له، ولزوم الفطرة[1]، وفي مجيئه باسم الإشارة للبعيد مزيدُ تعظيم له، فالعظيم لرفعته، وعلو منزلته، كأنّه حاز البعد فيما ذكر، وفي ذلك إشارة إلى زيادة تمييز هذا الدّين، مع تعظيمه[2].

دلالةُ لفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾، ونكتةُ تعريفه بـ(أل):

إسلام الخضوع والاستسلام، هو الفطرة التّي بـرأ الـلـه عليها الأنام

عبّرت الآية بلفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾ في قوله: ﴿ٱلدِّينُ﴾، ويدلّ لفظ الدّين على الخضوع والالتزام والاستسلام[3]، والقيّم: الّذي لا تقوم الحياة إلّا به، هو مجموعة من التّشريعات الرّبانيّة المشتملة على الأخلاق؛ ودين الله دين الإسلام الحقّ، الّذي نؤمر بالإستقامة على نهجه، والالتزام بهدي[4]، و﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ هو الجامع لمعاني الإسلام النّبيلة، الّتي دلّ عليها، تعريفه بأل العهديّة، والإشارة إليه باسم الإشارة الدّال على البعيد، اعتبارًا لكماله وسموّه، وكونَه الحقيقَ باسم الدّين القيّم، دون سواه من الأديان، لما فيه من كمال، وما يتميّز به من موافقة للفطرة النّقيّة، والثّبات على المبادئ والمُثُل النّقيّة.

سرُّ صيغة (فَيْعِل)، وبلاغة الاستعارات:

الـدّيـن القـيّـم، نهج واستقامة وثبات

صيغ الوصف ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ بصيغة (فَيْعِل)، والّتي تفيد المبالغة وقوّة الاتّصاف بمصدره، وهو القيام[5]، فصار مستقيمًا في نفسه قائمًا بغيره، وفي وصف ﴿ٱلدِّينُ﴾ بـ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ استعارات بديعة، إذ استعير وصف الاستقامة من العود الّذي لا عوج له إلى الدّين؛

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 259، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 93.
(3) الراغب، المفردات: (دين).
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 21/ 54.
(5) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 337، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 390.

لنفي أي ميل أو انحراف أو نقص فيه[1]، واستعير وصف القوامة من القائم بشؤون غيره يرعاها ويؤدّي ما تستحقّه، لمن أقبل على الإسلام، وثبت عليه، وصَلحت حياته، وتحقّق كماله، واستعير وصف القيّم أيضًا، للمهيمن على غيره، والحافظ له، والإسلام حفظ ما في الكتب السّالفة، وهيمن عليها ببلاغة وارفة، وجدّد للنّاس المعين الزّلال، وأسعدهم بالوسطيّة والكمال، "لأنّ الدّين القيّم هو الدّين الكامل المستقلّ بنفسه، وذلك إنّما يكون إذا كان الدّين حاصلًا، وكانت آثاره ونتائجه حاصلة"[2].

معنى (الواو) في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الاسترسالُ لإتمام التّنويه، مفيد في الإبانة عن المراد

عُطفت جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، بالواو، عطفَ استدراك على التّنويه، فالتّنويه بشأن هذا الدّين في خطاب الكفّار لا يمرّ دون استغراب، فاسترسل الحديث ليدفع أيّ اعتراض على كمال هذا الدّين، والاستدراك في قوله: ولكن أكثر النّاس لا يعلمون لدفع توهم واهم يقول: إذا كان هو دين الفطرة وهو القيّم فكيف أعرض كثير من النّاس عنه بعد تبليغه[3]، قال القاضي: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: "أي، لا ينظرون ولا يتأمّلون لفرط غفلتهم واتّباعهم أهواءَهم، وما يستوي العاقل والمتبصّر، وينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التّفاوت، وهي فيما بعد البعث[4].

دلالةُ قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

الاستدلالُ بالخارجين على دين الفطرة، بتأجّج الصّراع بين الحقّ والباطل

نسبتِ الآية عدمَ العلم إلى أكثر النّاس، والمقصود بأكثر النّاس هنا هم غير المؤمنين، أي المشركين وأهل الكتاب المحرّف، وكلّ العالمين سوى المسلمين من أتباع المصطفى وأتباع الرّسل والأنبياء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 99.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 13/ 531.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 94.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 531.

السّابقين بحقّ، وفي ذلك إشارة إلى ما يُنتظر من كثرةٍ تعارض ما فُطرت عليه، مع أنّ الإسلام لله أصيل فيهم، وعدم العلم، بمعنى عدم معرفتهم، أنّ الله قادر على البعث والنّشر، وهو أهون عليه، كما أكّد ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1].

دلالةُ التّعبير بصيغة (أفعل) في ﴿أَكْثَرَ﴾:

ليست العبرة بالكثرة، بل بالفعاليّة والجدوى

صيغ لفظ ﴿أَكْثَرَ﴾، بصيغة التّفضيل أفعل، وتدلّ على أنّ عدد من حاد عن دين الفطرة أكثر ممّن التزمه، في إشارة إلى أنّ العبرة ليست دومًا بالكثرة، فالفئة الأقلّ هي الّتي لزمت الأصل، في حين انحرفت الفئة الأكثر، وقد أشار القرآن في سورة الحجّ إلى انسلاك الكون برمّته، في طاعة الله وعبوديّته، واستثنى البشر الّذين شذّوا عن ذلك النّهج العبوديّ الحصيف، فانحرف لفيفٌ منهم، عن الهدى ودين الحقّ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحجّ: 18]، وقال في هذا السّياق: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13].

نكتةُ الإضافة في قوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

الكثرةُ قد تكون ذات أثر، في الخير وفي الشّرّ

أضيف لفظ ﴿أَكْثَرَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ونكتة هذه الإضافة هي الإشارة إلى أنّ الكثرة من الشّيء الواحد قد تؤثّر، في من هو مثلُهم، ولو كان ذلك على خلاف الأصل، فهؤلاء الكفّار لكثرتهم، قد أثّروا في الآخرين، فرأوا أنّ الأصل هو الشّرك؛ مع أنّ ذلك خلافُ فطرة النّاس.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 14/ 137.

دلالةُ التعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

بيان أنّ البشر مخلوقون على الفطرة، ويخالفونها

اختارت الآية التّعبيرَ بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، للإشارة إلى أنّهم ممّن خلق الله على الفطرة، وتعريف اللّفظ بأل الجنس؛ أي إنّهم البشر، وفي ذلك إشارة إلى استغراب موقف الكفّار المضادّ لفطرتهم، والتّساؤل عن سبب ذلك، مع أنّ الكلّ بشر فُطِر على الحقّ! وفي السّياق إشارة إلى جهل هؤلاء المشركين، وغيرهم من الضّالين والمكذّبين، في مختلف العصور والبيئات، بقدرة الله وسلطانه القائم على كلّ شيء، وأنّ فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها، هي الدّين القيّم الّذي لا ريب فيه، وذلك أمر يشمل النّاس برمّتهم، ولو علموا لكانوا على الهدى لا على الضّلال.

معنى ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

لو تحقّق العلمُ في النّاس لعادوا إلى الفطرة السّوية بالعبوديّة

عبّرت الآية بلا النّافية في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وتدلّ ﴿لَا﴾ هنا على نفي العلم، فهم لا يعلمون ذلك حتّى يعملوا به[1]، فلو أنّهم اتّصفوا بالعلم، لآمنوا بأنّ الإسلام دين الفطرة، فهي إشارة إلى سبب الاهتداء، وهو تحقّق العلم في أسلوب النّفي الّذي جعلهم غير عالمين، والعلم وسيلة الإدراك، لفهم طبيعة الفطرة، ولو كان لهم أثارة من علم، لزالت تلك الغشاوات الّتي تغطّي عنهم مجال الرّؤية الصّافية، لتتفاعل مع الفطرة الأصيلة، ممّا غرسته قدرة الله في أعماق النّاس، ليعلموا دون غبش، ولا ضبابيّة، ولا حجب.

دلالةُ نفي العلم في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

بيانُ أنّ نسبة الجهل للنّاس، نتيجة منطقيّة لنفي العلم عنهم

دلّ نفي العلم عنهم في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، على نسبتهم إلى الجهل، فلا يوصفون بالعلم لأنّهم ولو علموا حقّ العلم لاتّبعوا[2]، إذًا فهم جاهلون بالحقّ، وبفطرتهم وما ينسجم معها، وما به

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 259.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 41، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 21/ 46.

صلاحهم لو التزموا الإسلام، والوصف في القرآن الكريم بعدم العلم في عمومه، يؤكّد أنّهم "لا يعلمون شيئًا عمّن خلقهم، فأبرزهم من العدم إلى الوجود، ورزقهم، وسوف يميتهم، ثمّ يحييهم، ثمّ يجازيهم على أعمالهم، ولم يعلموا شيئًا عن مصيرهم الأخير الّذي يقيمون فيه إقامة أبدية في عذاب فظيع دائم، ومن غفل عن جميع هذا، فليس معدودًا من جنس من يعلم؟[1]، وعدم العلم بالفطرة، ضلال ومفسدة.

دلالةُ نفي المضارعة:

نفيُ محاولة التعلّم عنهم غلقٌ لباب الفهم والتّأثّر

صيغ الفعل المنفيّ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بصيغة المضارعة، وفي نفيه نفي لمحاولاتهم التّعلّم، فهم لا يعلمون ولا يحاولون التّعلّم، ولو حاولوا لعلموا الحقّ، فالتزموا به، وهي إشارة إلى تمام بعدهم عن العلم، وإعراضهم عن كلّ ما يفتح عليهم علمًا[2]، فصاروا في ظلمات الجهل بعضها فوق بعض، ومن كان كذلك، فأنّى له أن يقف على فطرته، وما ينسجم معه؟.

نكتةُ حذف مفعول العلم:

نفيُ أصل التعلّم عنهم إفصاحٌ عن إبغالهم في الجهالة والعناد

حُذف مفعول العلم في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ونكتةُ حذفِه هنا، هي القصد إلى الفعل ذاته؛ كأنّه فعل لازم مع أنّه متعدّ[3]، أي إنّ المنفي فيهم هو فعل العلم ذاته، بغضّ النّظر عن المطلوب، فهم لا يَسْعَون لتعلّم شيء أو معرفته، مكتفين بما عندهم من أثارة علم، فيما لا يفيد في مهمّات حياتهم، فلا يبذلون جهدا في القيام بالتعلّم، ومن كان كذلك، فإنّ رواسب الزّمان، وتأثير الأقران ووساوس الشّيطان، ستُغطّي عليه أكبر الحقائق، وأشدّ الأمور أصالة فيه.

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/ 528.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 89.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 94.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفطرة والخلقة:

الفطرة أصلٌ وابتداء، والخلقة خصائص وطباع ومكوّنات

تجتمع الفطرة والخِلقة في معنى الإيجاد، و"فَطْرُ اللّهِ الخلقَ: هو إيجادُه الشّيءَ وإبداعُه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال"[1]، والفطرةَ السّلامةُ والاستقامة، بدليل حديث عياض بن حمار عن النّبيّ ﷺ حاكيا عن ربّه ﷻ: «إنّي خلقت عبادي حنفاء»[2]، يعني أنّه أوجدهم على استقامة وسلامة، "والفطرة: ما فُطِر - أي خُلق - عليه الإنسان ظاهرًا وباطنًا، أي جسدًا وعقلًا، فسَيْرُ الإنسان على رجليه، فطرة جسديّة، ومحاولة مشيه على اليدين، خلافُ الفطرة"[3]، وتتميّز الفطرة في أنّها ابتداء وإخراج من عدم، ففطر الشّي أوجده من عدم، وفطره أي ابتدأه، وفطره أي شقّه[4]، أمّا الخلق فتقدير وخصائص[5]، فخلقَ الشّيء أوجده، يقول تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]، أي تقديرًا وتصويرًا، وإذا كانت الفطرة والخلقة سواء، فإنّ الفطرة يُنظَر إليها من زاوية الأصل والابتداء، في حين يُنظر إلى الخلقة من زاوية الخصائص، ولمّا كان الإسلام هو سبيل الاستقامة التي أوجد اللّه تعالى الناس عليها ناسب لفظ ﴿فِطۡرَتَ﴾ بوصفه فعل إبتداء خلق النّاس على مبنى السّلامة والاستقامة.

التّبديل والتّغيير والتّحريف:

التّحريف تبديل جزئيّ والتّغيير تبديل إلى وضع مخالف

التّغيير والتّحريف تبديل، وهو إحلال شيء محلّ شيء آخر نوعًا أو صفةً[6]، إلّا أنّ التّغيير هو إبدال إلى ما يخالف الوصف أو

(1) الرّاغب، المفردات: 2/ 494.
(2) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: 18/ 68 - 71.
(3) ابن عاشور، أصول النّظام الاجتماعيّ، ص: 36.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 407.
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 224.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (بدل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/ 21.

الشّيء الأوّل[1]، ففيه معنى التّقابل بينهما، وأمّا التّحريف فهو إمالة الشّيء إلى حرفه أيّ حافّته[2]، وهو تعديل في حرف الشّيء لا في أصله[3]، بغضّ النّظر عمّا حرّف إليه موافقًا أو مخالفًا، فالتّحريف تبديلٌ جزئيّ والتّغيير تبديل كلّيّ إلى مخالف، وقيل التّغيير هو انتقال من حال إلى حال، وهو يتعلّق بالأعراض، مع بقاء الذّات، أمّا التّبديل يكون في الذّوات، وما ذكره المشركون من طلب تغيير القرآن أو تبديله، إنّما هو إمّا طلب بقاء رسم القرآن في المصحف، مع التّصرّف في المضامين، بما يلائم الأهواء، أو استصدار رخص تلغي عزائمه وواجباته الملزمة المفروضة على المؤمنين، بنصّ قطعيّ صريح، أمّا تبديله، فهو إلغاؤه وتعطيله وإبطاله بصورة نهائيّة، وإحلال قوانين البشر وفلسفاتهم محلَّه[4]، وقد كان المشركون يريدون التّغيير والتّبديل حتّى قبل نهاية التّلاوة، قال السّامرّائيّ: "قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: 15]، فإنّ معناها أنّهم في أثناء القراءة، يقولون: ائت بقرآن غير هذا، يقولون ذلك والقراءة لم تكتمل بعد، لضيق ذرعهم بسماعه"[5]، وهذا المعنى ملائمٌ لاختيار لفظة التّبديل.

الخَلق والإنشاء والتّقدير:

التّقديرُ تحديد قدر، والخلق ابتداء وتقدير، والإنشاء تعهّد وتجديد

يجتمع الخلق والإنشاء في الإيجاد، ويفترق عنه في أنّ الإنشاء إحداث الشّيء وتربيته[6]، فهو إيجاد متجدّد وتعهّد للشّيء حالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 102.
(2) الرّاغب، المفردات: (حرف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (حرف).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 24 (بتصرّف).
(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 79.
(6) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

بعد حالة؛ فيتجدّد خلقه كلّ حين، يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ [المؤمنون: 14]، أما الخلق فهو ابتداء بخصائص، وتقدير محدّد[1]، يقول ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، والخلق تقدير، إلّا أنّ التّقدير هو تحديد كمّية شيء[2] وخصائصه ومقاديره[3]، يقول تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ [الفرقان: 2]، في حين أنّ الخلق تقدير للشّيء ابتداء وتحديد خصائصه الأصليّة، ويزاد بأنّ غير الله تعالى لا يخلق كخلق الله، فلا يمكنه إيجاد معدوم، ولا إحياء ميت، وإنّما خلق غير الله تعالى، يكون بالتّغيير وتحويل الشّيء من صفة إلى صفة أخرى، وهو مخلوق لله ﷻ، فالمصوّر مثلًا إذا صوّر صورة، فإنّه لم يحدث شيئًا، غاية ما هنالك، أنّه حوّل شيئًا إلى شيء، كما يحوّل الطّين إلى صورة طير، أو صورة جمل، وكما يحوّل بالتّلوين الرّقعة البيضاء إلى صورة ملوّنة، فالمداد من خلق الله ﷻ، والورقة البيضاء من خلقه، هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنّسبة إلى الله تعالى، وإثبات الخلق بالنّسبة إلى المخلوق، وعلى هذا؛ يكون الله سبحانه وتعالى منفردًا بالخلق الّذي يختصّ به[4]، ومنه فلفظ (خلْق) في الآية يناسب التّصريح بنفي تبديل ما قدّر الله تعالى ابتداءً.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة للمحقق بيت الله بيات، ص: 121.
(4) محمّد بن صالح العثيمين، كتاب فتاوى أركان الإسلام، ص: 11.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»